الفصل السادس
وسائل المستشرقين

لم يترك المستشرقون وسيلة لنشر أبحاثهم وبث آرائهم وسيلة لأحكام الكيد للإسلام والمسلمين إلا سلكوها وفيما يلي وسائلهم:

١- تأليف الكتب في موضوعات مختلفة عن الإسلام والرسول والقرآن وتاريخ المسلمين ومجتمعاتهم وفي معظم هذه الكتب كثير من التحريف في تفسير الوقائع التاريخية وتعليل أحداثها واعتبار بعض الحوادث الفردية الإنسانية لها صفة العموم والشمول لكل الأفراد ونحو ذلك من تضليلات محرومة من المستوى الأدنى للأمانة العلمية.

٢- إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام والمسلمين وشعوبهم وبلدانهم.

٣- إمداد إرساليات التبشير بالخبراء من المستشرقين ودعمها بما تحتاج إليه من جهودهم.

٤- إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداء للإسلام يستطيعون أن يحركوا الأيدي الخفية لاستدعائهم إلى الجامعات العربية والإسلامية، يدرسون فيها ما تيسر لهم دسه من أفكار.

٥- نشر المقالات في الصحف المحلية للبلاد الإسلامية وقد استطاعوا أن يستأجروا عدداً من هذه الصحف لنشر مقالاتهم والترويج لأفكارهم.

٦- عقد المؤتمرات الاستشراقية لتبادل الرأي فيما يحقق أهداف الاستشراق وما زالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام ١٧٨٣م حتى الآن.

٧- إنشاء الموسوعة الإسلامية وقد أصدروها بعدة لغات وقد حشد لهذه الموسوعة كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام. ودس فيها السم بالدسم وملئت بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلق به. ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين المسلمين إذ يعتبرونها حجة فيما تورده من معارف[١].

إن الاستشراق كان ولا يزال يشكل الجذور الحقيقية التي تقدم المدد للتنصير والإستعمار والعمالة الثقافية ويغذي عملية الصراع الفكري ويشكل المناخ الملائم لفرض السيطرة الإستعمارية على الشرق الإسلامي الذي يمد المنصرين والمستعمرين وأدوات الغزو الفكري بالمواد التي يسوقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته وتخريب عالم أفكاره والقضاء على شخصية الحضارة التاريخية. لقد تطورت الوسائل وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة ويكفي أن نشير إلى أن مراكز البحوث والدراسات سواء أكانت مستقلة أم أقساماً للدراسات في الجامعات العلمية. وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانيات المادية أو المبتكرات العلمية والاختصاصات الدراسية تمثل الصور الأحدث في تطور الاستشراق، حيث يمكن أصحاب القرار من الإطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً.

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي عشرة آلاف مركز للبحوث والدراسات، القسم الكبير منها متخصص بشئون العالم الإسلامي، وظيفة هذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم الإسلامي ومن ثم دراسته وتحليله مقارناً مع أصوله التراثية التاريخية ومتابعة العقائدية ثم مناقشته مع صانعي القرار. لتبنى على أساسه الخطط وتوضع الاستراتيجيات الثقافية والسياسية وتحدد وسائل التنفيذ[٢].

لقد نجحت العقلية الأوروبية الاستشراقية في فرض شكليتها وآليتها على

---

(١) عبد الرحمن حسن حنبكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير - الاستشراق - الإستعمار، مرجع سابق ص٩٨-٩٩.

(٢) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي - عبد العظيم محمود الديب، الطبعة الاولى (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الإسلامية، ١٤١١هـ) ص٨-٩.

التحقيق والتقويم والنقد والسيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي وعن طريق الاستشراق والمستشرقين بادرت إلى التحقيق والطبع والنشر لمجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية وعلى الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من صفة النزاهة والحياد، إلا أنها في النهاية وبكل المقاييس تبقى مظهراً من مظاهر الاحتواء الثقافي[١].

لقد ظلت كتابات المستشرقين عن الإسلام المصدر الذي يستقي منه الأوروبيون معلوماتهم عن الإسلام. ويمكننا أن نقول أن الاستشراق يمثل الخلفية لقضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام وفي تشكيل مواقف الغرب، إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة[٢].

إن تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية عرف فترات حوار وتفاعل وفترات صدام وتطاحن والغزو الحديث للأمة الإسلامية جاء بالسيف والمحراث أو بعبارة أخرى جاء بالمدافع والنهب الاقتصادي ثم تلاه غزو فكري ارتكز على الثالوث المعروف الإستعمار والتنصير والاستشراق لأن غزو العقل يضمن له تأييد تبعيته له حتى بعد انتهاء الاحتلال العسكري وهكذا نصبح نحن نتبنى النموذج الغربي ونتخلى عن المرجعية الإسلامية في مشروعنا النهضوي في الحكم والإرادة والتشريع[٣].

لقد كان لأفكار المستشرقين وأعمالهم ووسائلهم صدى في العالم الإسلامي ولاسيما مصر.

يقول أبو الحسن علي الحسني الندوي ورجع كثير من الجامعيين (يعني من أوروبا بعد البعثات) متشبعين بروح الغرب يتنفسون برئة الغرب ويفكرون بعقله

---

(١) المرجع نفسه ص١٥.

(٢) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الطبعة الأولى (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ١٤٠٤هـ) ص١٤.

(٣) الإسلام والغرب، مجموعة من الكتاب، الطبعة الأولى (الكويت، مجلة العربي، بدون تاريخ) ص١١٧.

ويرددون في بلدهم صدى أساتذتهم المستشرقين وينشرون أفكارهم ونظرياتهم في إيمان عميق وحماسة زائدة فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلا ويجد أديباً أو مؤلفاً يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ويشرحها ويدعو إليها في كل لباقة وبلاغة مثل بشرية القرآن وفصل الدين عن السياسة وإن الإسلام دين لا دولة والدعوة إلى العلمانية والشك في قيمة الحديث العلمية وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة في الإسلام والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل والدعوة إلى السفور وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ومتأثراً به في روحه وسببه والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام وتمجيد الفن الفرعوني والتغني بحضارته وأدبه وأمجاده والدعوة إلى العامية والتأليف فيها واقتباس الحروف اللاتينية والتقنين المدني الغربي على أساس القانون المدني الغربي والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية والشيوعية الماركسية أحياناً[١].

من خلال إنتاج المستشرقين من كتب وأفكار يستقي الإنسان الغربي معلوماته عن الإسلام وكذلك من كتابات المختصين في هذا المجال من فلاسفة وأدباء وهم كذلك يبنون معلوماتهم على ما ينتجه المستشرقون. إنتاج المستشرقين المقدم من خلال وسائلهم يعد من الغزو الثقافي والغزو الثقافي عبارة عن السيطرة على العقل والقلب والوجدان ويرى العديد من الدارسين أن التحديات الثقافية التي تواجه الأمة أشد خطراً وبلاء من التحديات العسكرية من حيث:

١- إن الغزو الثقافي يتميز بالشمول والامتداد والدوام وهو غزو لا يحده ميدان فيشمل شعب الحياة كلها الفرد والأسرة والمجتمع ويتسلل منه خلال التعليم والإعلام والنوادي والتنظيمات أما الحرب العسكرية فإن أمرها ينتهي بمجرد تحقيق الانتصار العسكري وتحقيق الغلبة على المهزوم.

٢- إن الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف إستعمارية دون الرغبة من

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، الطبعة الأولى (لبنان، دار الندوة للتوزيع ١٩٦٥م) ص١٣٠-١٣١.

الشعوب المستعمرة أما الغزو الثقافي فقد ينطلي بنعومة ويتسلل بخفاء دون إدراك من الأمة المهزومة ثقافياً فتسير إلى غازيها عن طواعية وإلى جازرها عن رضا واقتناع وحب ولا تحاول التمرد أو الخلاص.

٣- إن استسلام الأمة المستهدفة فكرياً وثقافياً لهذه التحديات والمؤثرات قد يصل إلى درجة انقلاب المعايير والمفاهيم والقيم فتشكل لديها أنماطاً جديدة في السلوك والأخلاق والأذواق تجعل المهزوم يفخر بتبعيته للغازي ثقافياً وفكرياً بدلاً من أن ينهض لمقاومته ورده ودماره[١].

لقد ترك المستشرقون آثارهم واضحة في ميدان التفكير، نجد المستشرقين وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ويملكون إعجاب الأوساط العلمية في الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها، ويقام لآرائهم ونظرياتهم في البحوث في الشرق وزن كبير آثاروا في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه ممن تثقفوا في مراكز الغرب الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب شبهات حول الإسلام ونبي الإسلام والمصادر الإسلامية وأحدثوا في نفوسهم يائساً عن مستقبل الإسلام ومقتاً على حاضره وسوء ظن بماضيه، كما كان لهم سهماً كبيراً في الحث على نصرة (إصلاح الديانة) وإصلاح القانون الإسلامي[٢].

من خلال وسائلهم وجد في مصر كتاب وأدباء دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية واتخاذها مثلاً أعلى في الحضارة والاجتماع وكانت مصر ببقائها تحت الاحتلال الغربي مدة طويلة وبحكم قربها من أوروبا وبفقد الدعوات الدينية التجديدية المؤسسة على النقد العلمي، تزداد انصياعاً بالحضارة الغربية كل يوم، وتتجه إلى الغرب اتجاهاً مستمراً حتى كادت تصبح في الطبقة المثقفة والارستقراطية صورة من الحياة الغربية واستطاع الدكتور طه حسين في سنة

---

(١) محمد أبو يحيى، الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية (عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م) ص٢٣٤-٢٣٥.

(٢) أبو الحسن علي الحسني الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، مرجع سابق ص١٩٣.

١٩٣٢م أن يصور بلده تصويراً غربياً ويقول في كتابه المشهور (مستقبل الثقافة في مصر) حياتنا المادية أوروبية خالصة في الطبقات الراقية وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسعة ذات اليد، ومعنى هذا المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوروبي في حياته المادية.

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة، نظام الحكم عندنا أوروبي خالص عن الأوروبيين نقلاً غير تحرج ولا تردد وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية، التعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه على النحو الأوروبي الخالص ما في ذلك شك ولا نزاع. نحن نكون أبنائنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة. كان هذا من نتائج تغلغل الأفكار والثقافة الغربية في الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي وسيطرتها على التفكير والمشاعر[١].

(١) أبو الحسن علي الحسيني الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، مرجع سابق ص١٣٣-١٣٤.